# نهاية التاريخ: فرانسيس فوكوياما نموذجا

**ملخص**

إثر انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية ، كثر الحديث عن نهاية التاريخ وعصر الإيديولوجيات، وأن مرحلة جديدة بدأت ،تتميز بالبراجماتية وغياب التعصب الأيديولوجي، وسيادة العقلانية القانونية، وكان الانتشار الساحق لكتاب نهاية التاريخ وخاتم البشر "لفرانسيس فوكوياما".

لقد اعتمد فوكوياما فرضية الديمقراطية الليبرالية كأعلى نموذج ينتجه الفكر السياسي ، وفرضية الرأسمالية كأعلى نموذج ينتجه الفكر الاقتصادي، كما أعتمد في أطروحته على أسس عينية من خلال استقرائه للواقع الدولي، ليخلص من كل ذلك إلى إثبات أن النموذج الاقتصاد الليبرالي سيكون بمثابة أنموذج الإنسانية الأبدي.

يسعى هذا المقال إلى التعريف بأطروحة نهاية التاريخ عند فوكوياما، مع إبراز الجذور الفلسفية التي اعتمد عليها هذا الأخير في التأصيل لأطروحته، بالإضافة إلى الافتراضات الأساسية التي تنهض عليها، والشواهد الواقعية التي تؤكد صدقها، كل ذلك مشبعا بأوجه النقد التي وجهت له في خضم الأحداث التاريخية التي ميزت صدور هذا الإسهام.

**د. يعيش وسيلة خزار**
المدرسة العليا للأساتذة
قسنطينة
الجزائر

**Résumé**

A la fin de la guerre froide, la chute de l'union soviétique et du système socialiste en Europe de l'Est, d'aucuns ont parlé de la fin de l'histoire et de l'époque des idéologies, et qu'une nouvelle ère, se caractérisant par le pragmatisme et l'absence de préjudice idéologique et la domination du rationalisme légal a commencé. C'est à cette époque même qu'apparut le livre de F.Foukouyama : « la fin de l'histoire et le dernier homme. »

**ينبع** مفهوم نهاية التاريخ عند فوكوياما من اعتقاده أن هناك إجماعا حول شرعية الديمقراطية الليبرالية وصلاحها نظاما للحكم، خاصة بعد سقوط الأنظمة الشيوعية في روسيا وشرق أوروبا، فهو ينظر إلى الديمقراطية الليبرالية بوصفها نقطة نهاية التطور الإيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فإن الديمقراطية الليبرالية تمثل نهاية للتاريخ.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2008.

F.Foukouyama s'est basé sur l'hypothèse de la démocratie libérale comme étant le modèle suprême produit par la pensée politique, et l'hypothèse du capitalisme comme étant le modèle suprême produit par la pensée économique. Pour justifier sa thèse, il s'est basé sur des fondements réels à travers sa lecture de la réalité internationale, aboutissant au fait que le modèle libéral apprécié par une grande communauté internationale sera et pour toujours une religion humanitaire.

Cet article vise à présenter la thèse de : « la fin de l'histoire » chez F.Toukouyama, dans laquelle apparaissent ses racines philosophiques, les hypothèses principales sur lesquelles se base cette thèse, ainsi que les preuves réelles qui confirment sa justesse, le tout empreint de critiques reçues à travers les événements historiques qui ont caractérisé l'apparition de son apport philosophique.

ولقد استعار فوكوياما تلك المقولة عن نهاية التاريخ من "هيجل " و"ماركس"و مؤداها بلوغ البشرية شكلا من أشكال المجتمع الملبَّي للحاجات الأساسية. والذي يعنيه بنهاية التاريخ هو ذلك الحد الأقصى الذي يقف عنده التقدم في التطور المادي والأنظمة السياسية، بعد أن تكون تلك القضايا الرئيسية قد وجدت طريقها للحل. (1) وللإنصاف نقول بأن بعض الذين هاجموا فوكوياما أو عارضوه أخطئوا فهم ما قصده بالتاريخ، فقالوا أن التاريخ لا يمكن أن ينتهي لأن أحداثه لا تتوقف، وحوادثه لا تتكرر، وبخاصة بعد أن ثبت بطلان المقولة الشهيرة :" التاريخ يعيد نفسه" فكل حدث مرتبط بزمانه ومحدد بمكانه.إن ما قصده فوكوياما ليس الأحداث التاريخية، وليس التاريخ الذي يختص بتسجيل الأحداث وقراءتها وتحليلها واستنباط الدروس منها، والتوصل إلى نتائج تفيد البشرية، وهو يعرف بأن التاريخ بهذا المفهوم لا ينتهي، فهو باق ومستمر مادامت هناك حياة على سطح الأرض." إن التاريخ الذي يقصده فوكوياما هو الذي يهتم بتتبع مراحل الصراع البشري منذ تمكن الإنسان من تكوين مجتمعه البشري على قواعد وأسس وضوابط، وكان محور الصراع يدور حول النفوذ والسيطرة في هذا المجتمع، أي بين السادة والمستضعفين وكانت الغلبة للسادة الذين تمكنوا بفضل قوتهم وشجاعتهم من فرض سلطتهم على الضعفاء الذين رضوا بالخضوع للسادة بسبب جبنهم وتخاذلهم، فاستبد السادة واستأثروا وحدهم بالسلطة واحتكروا الحكم. وقد مر هذا الصراع بمراحل متعددة كان آخرها سقوط الدكتاتورية والاستبداد وانتصار الديمقراطية الليبرالية، وتغلب الرأسمالية على الاشتراكية وبذلك يكون التاريخ قد اكتمل ووصل إلى نهايته".(2)

وعلى كل فأحلام البشرية في قيام مجتمع مثالي ليست بجديدة، فمنذ الفلسفة اليونانية، كتب أفلاطون عن تصور خاص لجمهوريته، واستمر الحلم .... لقد وجد دائما منظرون عند كل حقبة يبشرون بقيام مجتمع إخاء تلغى فيه الحروب، ويقضى فيه على الأمراض والمجاعات، ولكن تحقيق ذلك بقي بعيدًا عن المنال.

ليس فوكوياما إذن أول من بشر بنهاية التاريخ، فقد سبقه في ذلك فلاسفة ومفكرون أبرزهم " هيجل" صاحب نظرية الصراع من أجل الاعتراف ومؤسس الديالكتيك، عندما أعلن أن التاريخ قد انتهى بعد معركة ايينا Iena عام 1806 وذلك بانتصار الدولة الليبرالية ،وماركس الذي ذهب إلى أن الدولة الحرة التي اعتبرها هيجل نهاية التاريخ لم تمثل عالمية الحرية، لأنها فشلت في حل الصراع القائم بين

البرجوازية و طبقة البروليتاريا. وبهذا فإن نهاية التاريخ عنده تأتي فقط مع انتصار الطبقة العالمية الحقيقية وهي طبقة البروليتاريا، وبالتالي تحقيق الشيوعية العالمية التي سوف تضع حدا للصراع الطبقي وإلى الأبد. وقبلهما كانط الذي ذهب إلى أن التاريخ العالمي هو في نهايته إدراك للحرية البشرية، ومكيافيلي الذي تتجسد نهاية التاريخ عنده في تحقيق نظام الحكم الجمهوري فهو وحده الذي يلائم حياة الإنسان و يضمن للدولة البقاء والاستمرار (3) و" إلى جانب هؤلاء نجد "دانييل بل Daniel Bell " الذي يذهب إلى أن تلك الإيديولوجيات التي نشأت في مرحلة نفوذ الرأسمالية الصناعية ،مما أدى إلى نشوب صراع أيديولوجي في الماضي، قد استنفذت، أي أنها فقدت حقيقتها و قوتها الإقناعية لدى المثقفين الراديكاليين، وفيما عدا القلّة التي تؤمن بالمخططات الاجتماعية لتحقيق "طوباوية الانسجام الاجتماعي، أو القلة المحافظة التي لا ترى للدولة دخلا في الاقتصاد، وتناهض دولة الرفاهية، فإن هناك بالتقريب إجماعا بين المفكرين في الغرب على المسائل السياسية والتعددية ولا مركزية السلطات، والاقتصاد المخطط، ودولة الرفاهية، وبهذا المعنى فإن العصر الإيديولوجي قد انتهى، وأصبحت الإيديولوجيا التي كانت طريقا للعمل أمام درب مسدود ". وأيضا " لين Robert Lane " الذي يهتم بتأثيرات المعرفة العلمية في مستويات النظر إلى الأمور من زوايا أيديولوجية، حيث يذهب إلى أن حل مشكلات المجتمع سيخضع إلى معايير فنية وتخصصية دقيقة، مما يعني أن الناس ستولي عنايتها عند اتخاذ مواقفها لما ينبغي عمله تبعا للحجة العلمية التي تحدد سلامة اختياراتهم، ففي المجتمع الصناعي المشبع بالعلم والمعرفة، تكون المعرفة الدقيقة إحدى الشروط الضرورية لاتخاذ القرارات الاجتماعية على مستوى الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة، وبموجب هذه الخصائص التي يمتلكها العلم، فإن صياغة القرارات السياسية، المواقف الإيديولوجية، سوف تخضع إلى طابع العلم الخاص، فيتسع مدى تطبيق المقاييس العلمية على حساب المقاييس السياسية والإيديولوجية، مما يؤدي إلى اضمحلالها" .(4)

هكذا إذن، تروي' نهاية التاريخ " حكاية النضوب التاريخي لكل النصوص التحشيدية التعبوية والتي تجسدت في الاشتراكية والقومية والفاشية والشيوعية والنازية...." لقد شهد القرن العشرون مرور كل هذه الإيديولوجيات على مسرح الفعل التاريخي ،و كانت نتائجها أكوام الجثث و المذابح الجماعية، والحروب العالمية بين الأمم والشعوب والمنافسة المستمرة بين الأفراد والكوارث البيئيَّة و الفوضى الاجتماعية، وتبقى فقط الديمقراطية الليبرالية بوصفها الشكل الأرقى للفكر الأيديولوجي والصورة النهاية لنظام الحكم البشري" (5).

**1- الجذور الفلسفية لأطروحة نهاية التاريخ :**

انطلق فوكوياما من نظرية "أفلاطون " والتي مفادها أن الإنسان مزيج من مركبات ثلاثة: الرغبة والعقل والثيموس "، ليجعل من الثيموس الذي يعني عند أفلاطون القلب والشجاعة رغبة في الاعتراف بالمفهوم الهيغيلي (جدلية السيد والعبد)، فإذا كانت

الرغبة والعقل معا يكفيان لتفسير عملية التصنيع وقسم كبير من الحياة الاقتصادية، فإن الثيموس ضروري لتفسير الطموح نحو الديمقراطية الليبرالية، أي لتفسير نضال الناس ضد الغطرسة والعبودية والتسلط. فهم يملكون جانبا ثيموسيا يتمثل في احترامهم لذواتهم، وذلك ما يدفعهم لتفضيل الحكم الديمقراطي الذي يعاملهم معاملة الراشدين لا معاملة الأطفال، ويعترف باستقلالهم كأفراد أحرار" (6). وهكذا يقوم فوكوياما بتحديد المحرك الأكبر للتاريخ الذي لم يعد يكمن في العنف والتطاحن الطبقي كما ذهب إلى ذلك ماركس، بل في مفهوم الثيموس، أي في هذه الرغبة الشديدة للاعتراف ولسنا ندري كيف فهم فوكوياما أن الثيموس عند أفلاطون يعني روح الحياة، وكيف أول هذا المعنى ليجعل منه الحافز الموجود فطريا عند الإنسان للديمقراطية الليبرالية، فذلك لا يستقيم منطقيا بما أن نظرية الديمقراطية عند أفلاطون سلبية في كنهها، كذلك لا يستقيم فلسفيا لأن أفلاطون قد كان يعني بالوظيفة الثالثة القلب والشجاعة!

ويشير فوكوياما إلى أن هيجل وماركس أيضا يعتقدان أن تطور المجتمعات البشرية ليس له نهاية، ولكنه قد يكتمل عندما تجد البشرية الشكل الاجتماعي الذي يشبع حاجاتها الأكثر عمقا، والأكثر أساسية، وهكذا يكون المفكران قد وضعا نهاية للتاريخ.

فبالنسبة لهيجل تتجلى تلك النهاية في الدولة الليبرالية حيث أعلن هيجل: "
أن التاريخ قد انتهى بعد معركة إيينا 1806 ، فهو لم يكن يدعى بالطبع أن الدولة الليبرالية قد انتصرت في العالم أجمع، فانتصارها لم يكن حتى مؤكدا في المقاطعة الألمانية الصغيرة حيث كان يعيش، فهو كان يقول ببساطة إن مبادئ الحرية والمساواة التي تميز الدولة الليبرالية الحديثة قد اكتشفت وأنجزت في البلدان الأكثر تقدَّما، وأنه ليس هناك من مبادئ أو أشكال للتنظيم الاجتماعي والسياسي بديلة تعتبر أعلى من مبادئ الليبرالية، وبعبارة أخرى كانت المجتمعات الليبرالية متحررة من التناقضات التي تتميز بها الأشكال القديمة من التنظيم الاجتماعي، وهذا ما ينبغي أن يؤدي إذن إلى النهاية الديالكتيكية التاريخية.

إن ما سعى فوكوياما لتحقيقه هو نفخ روح جديدة في فلسفة هيجل، ونبوءته التي زعم فيها أن مخاض الدولة البروسية كان حكما بنهاية التاريخ، وقد كان بروز الثورة البلشفية التي لم يتنبأ بها هيجل بمثابة القشة التي قصمت نبوءته، إلا أن تداعي الثورة الشيوعية التي أطاحت بنبوءة هيجل أوجدت المبرر لفوكوياما لإعادة النبوءة والحكم بنهاية التاريخ، ولكن دون أن يوضح لنا لماذا أخطأت نبوءة هيجل، ولماذا نؤمن بنبوءته كبديل لتلك التي أتى بها أستاذه ؟! لماذا لم ينته التاريخ بصدور مقالات هيجل " الفيزيولوجيا " ولماذا لم يبدأ فوكوياما بإزالة اللبس الذي اعترى تلك المقالات لتأسيس بنيانه الجديد على أرض صلبة؟ ألم يؤسس فوكوياما نظريته على نفس الأنقاض التي تركها هيجل مما يدعونا للتساؤل: إذا كان هيجل على حق فما الداعي لنبوءة أخرى ؟

أما بالنسبة لكارل ماركس، فقد أنهى التاريخ في المجتمع الشيوعي، لكن بأي مفهوم؟ إن نهاية التاريخ عند ماركس لا تتحقق ما لم تصل الجماعة إلى مستوى الطبقة، وما لم يصل الإنسان إلى مستوى العامل الواعي لذاته ودوره في إطار تلك الطبقة، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالبروليتاريا التي تجد فضاءها الرحب في الشيوعية. "ويرى

فوكاياما أن ماركس قد تلقى من هيغل المفهوم القائل إن مجتمع الناس قد تطور على مر العصور منذ البنى الاجتماعية البدائية وحتى المجتمعات الأكثر تعقيدا والعالية التطور، كما أخذ عنه أيضا الفكرة القائلة أن السيرورة التاريخية هي في أساسها ديالكتيكية، أي أن الأشكال الأولى للتنظيم الاجتماعي والسياسي كانت تحوي تناقضات داخلية تأكدت مع الزمن، وأدت إلى تدهورها واستبدالها بتنظيم أكثر تطورا وكان ماركس حسب فوكاياما يشاطر هيغل اعتقاده بإمكانية انتهاء التاريخ ،و لكن المسألة التي كان يختلف فيها مع هيغل هي بالضبط : نوع المجتمع الذي من المفروض أن ينبجي عن نهاية التاريخ،فماركس يعتقد أن الدولة قد فشلت في حل تناقض أساسي هو تناقض الصراع الطبقي، الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا، مبرزا هنا أن الدولة الليبرالية لا تمثل شمول الحرية ، بل فقط انتصار الحرية لطبقة معينة هي البرجوازية، ولكن أي دولة تلك التي يمكنها حسم الصراع ؟ إنها الدولة غير السياسية، فقد جاء في البيان الشيوعي : فما أن تزول التناقضات بين الطبقات ... وبما أن الإنتاج كله يتركز في أيدي الأفراد المتشاركين، عندئذ تفقد السلطة العامة طابعها السياسي، فالسلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد الطبقات الأخرى، وهذا يعني أن المجتمع الشيوعي لن يكون مجتمعا فوضويا ، إذ ستبقى فيه سلطة عامة ، إنما ستفقد هذه السلطة طابعها السياسي فحسب، والحال كما نعلم أن السياسي في نظر ماركس هو انقسام الإنسان إلى كائنين لا يستطيعان أن يتلاقيا بسبب الانفصال الذي تبعثه الطبقات بين الناس، وهذا هو الاضطهاد" (7) .

ولقد استقى فوكوياما أفكاره، إضافة إلى أفلاطون وهيغل وماركس، من مجموعة من الفلاسفة والعلماء، يأتي في مقدمتهم الاشتراكي الفرنسي "سان سيمون" وخاصة في نظريته للتقدم المؤدية إلى إنسانية ثرية منعمة بالسلم والأمن، و ذلك باستغلالها لمصدرين أساسيين: الصناعة والعلم. " ولكن لا يلتقي فوكومايا مع سان سيمون فيما سبق ذكره، بل في مقولة الأخير الداعية لبناء حضارة إنسانية أساسها العلمانية، فنفس الأجواء المعاصرة التي دفعت سان سيمون للتفاؤل لتحقيق هذا الحلم توفرت لفوكوياما ،و دفعت به إلى التفاؤل من جديد ، ففي إنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت هناك تطورات هامة :

1- الثورة الصناعية التي أدت إلى مزيد من الرخاء .
2- التجارة الحرة التي واكبت الثورة الصناعية خلقت أفاقا أوسع للوحدة الشاملة مما عنى أن :
3- الصناعة تزدهر على أحسن حال تحت مناخ الأمن والسلام.

أما المناخ المماثل الذي بعث بتفاؤل فوكوياما فهو :

1- سقوط الكتلة الشيوعية.
2- نهاية الحرب الباردة و انتقال الكتلة الشيوعية لنظام السوق مما عنى.
3- توفر مناخ الأمن والسلام اللازمين للإسراع بالنهضة الصناعية .

وحسب "صموئيل بيرنستاين " لما كان هناك تماثل في المقدمات والأجواء التي سبقت طرح المشروعين، فلقد كان هناك أيضا مقاربة دقيقة في المضمون الفكري "

كانت هذه في عجالة أهم المؤثرات الفكرية التي صقلت أطروحة فوكوياما، فماذا عن الافتراضات الأساسية التي تنهض عليها؟ وماذا عن الشواهد الواقعية والتاريخية التي تقوم دليلا من وجهة نظر فوكوياما على صحة هذه الافتراضات؟

**2- الافتراضات الأساسية لأطروحة نهاية التاريخ عند فوكوياما :**

وتتلخص في فرضيتين :

**1.2-فرضية الديمقراطية الليبرالية كأعلى نموذج ينتجه الفكر السياسي:**

تأكيدا على أن الديمقراطية الليبرالية هي أحسن ما أنتجه العقل البشري، يقر فوكوياما بوجود علاقة مماثلة أمبريقية بين التنمية والديمقراطية، وذلك بالتركيز على عنصر أساسي وهو التصنيع، إذ أنه لا يوجد مثال لدولة على درجة عليا من التصنيع المتقدم لا تتمتع بحكم ديمقراطي مستقر (8). إذن فالعلاقة جد وثيقة بين عملية التصنيع والديمقراطية و الأدلة لدعم هذا الافتراض كثيرة،" فدول مثل:البرتغال،إسبانيا، اليونان، البرازيل، كوريا الجنوبية، وكذا الاتحاد السوفيتي سابقا كلها عندما بلغت درجة معينة من التصنيع عرفت تحولا في أنظمتها السياسية حيث أصبحت ديمقراطية" (9). إلا أن الديمقراطية حسب "فوكوياما " هي الكفيلة بتوفير الانسجام وعدم التنافر بين المصالح ضمن اقتصاد حديث ومعقد، وهذا ما يؤدي إلى فرض إجماع متزايد حول شرعية الديمقراطية الليبرالية، إن ما يدعم هذا الإجماع هو ذلك العامل النفسي أو كما يسميه "فوكوياما " بالضرورة النفسية للديمقراطية، فالديمقراطية الليبرالية هي التي بإمكانها أن تلبي عقلانيا الرغبة الإنسانية في الاعتراف،و ذلك بضمان حقوق الإنسان في المواطنة بصورة عامة وعادلة. إن الأنظمة الاستبدادية، بما في ذلك دكتاتوريات اليسار (الأنظمة الشيوعية) مهما ادعت أنها تستند إلى مبدأ العدالة، إلا أنها لا يمكن أن تنفي الحقيقة المتمثلة في أنها تركز على مبدأ العلاقة الاستعبادية، هذه العلاقة التي تعترف باحترام الأسياد أيا كان شكلهم" (10).

إن ما يقصده "فوكوياما " بالاعتراف هو ضمان المشاركة السياسية الحقيقية للمواطنين من طرف المؤسسات القائمة، ويربط " فوكوياما " عنصر الاعتراف بما يسميه الروح المسيحية، حيث يعتقد أن أصل عنصر الاعتراف هذا يرجع إلى الديانة المسيحية التي تقر بتساوي العباد أمام الله، ومن هنا يمكن القول أنه توجد علاقة وطيدة، بين الديمقراطيات المستقرة والثقافة المسيحية في عالم اليوم (11).

إن عنصر الرغبة في الاعتراف الذي بإمكانه أن يعطينا ما يمكن تسميته بالخيط المفقود بين التنمية الاقتصادية والديمقراطية، لأن الديمقراطية الليبرالية هي الكفيلة بتوفير هذا العنصر، وبالتالي ضمان فعالية التنمية الاقتصادية وخاصة عند بلوغ اقتصاد دولة ما درجة معينة من التعقيد في الواقع فإن الديمقراطية الليبرالية تصبح ضرورية لمواصلة عملية التطور حيث أنَّه بقدر ما يتطور المجتمع اقتصاديا ، بقدر ما يكون الأفراد أحرارا من القيود المادية، وبذلك يتجه هؤلاء الأفراد للبحث عن أهداف غير مادية كالاعتراف بمكانتهم في المجتمع، وكذلك تحقيق مشاركة سياسية فعالة وحقيقيَّة،" ومن هنا تبرز جليًا أهمية الليبرالية الديمقراطية، وما يزيد في أهميتها كشكل

مناسب لتحقيق الاعتراف بمكانة الفرد هو ذلك الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي تفرضه التنمية الرأسمالية. إن هذا الواقع يتمثل في خلق عدالة توفر الظروف المناسبة للأفراد، وهذا ما يساعد على تحقيق الاستقرار للديمقراطية الليبرالية، وبالتالي فليس هناك نظام أفضل من الديمقراطية الليبرالية بحكم أنها بنية ونسق يحقق النجاح والمثل الأعلى، ولهذا يرى فوكومايا أن الديمقراطية الليبرالية ستظل المطمح السياسي الواضح والنهائي الذي يربط مختلف المناطق والثقافات في كوكبنا هذا " (12).

**2.2- فرضية الرأسمالية كأعلى نموذج ينتجه الفكر الاقتصادي:**

يذهب "فوكوياما " إلى أن البحث العلمي يتقدم بصورة أفضل في جو من الحرية، حيث يسمح للناس بالتفكير والاتصال بحرية، وحيث يكافئون على ابتكاراتهم، وهذا يؤدي بدوره إلى تطور في الاقتصاد والعكس صحيح (13). فمثلا نجد الاتحاد السوفيتي والصين يعتمدان على التخطيط المركزي، هذا بدوره أدى إلى فشل كلي للاقتصاد ومنعه من الوصول إلى مرحلة ما بعد التصنيع في الخمسينيات، وبالتالي قضى على قدرة هذه الدول في أن تلعب دورا مهما على المسرح الدولي، أو حتى على حماية أمنها الوطني (14)." إن اضطهاد "ماو" لخبراء الصناعة الأكفاء أثناء الثورة الثقافية أثبت أنه كارثة اقتصادية أخرت الصين جيلا بأكمله لذلك كان أول عمل قام به " ونج كسياوبنج " عندما جاء إلى السلطة في منتصف السبعينيات هو إعادة تمييز العبقريات التكنولوجية، وحمايتهم من بطش الأيديولوجيات السياسة، ولذلك اختار طريق الانتخاب والانتقاء الذي اتبعه السوفيت في الجيل السابق"(15). "إن انتشار التحديث الاقتصادي عن طريق التكنولوجيا يسهم في خلق دوافع قوية للدول المتطورة لتقبل الثقافة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وذلك عن طريق السماح بدرجة كبيرة من المنافسة الاقتصادية ،وترك الأسعار تتحدد وفقا لآليات السوق، ولا يوجد طريق آخر يقود للمعاصرة والتحديث الاقتصادي الكامل إلا هذا الطريق" (16).

إن المعجزة الاقتصادية في آسيا بعد الحرب تدل على أن الرأسمالية طريق واضح نحو التطور الاقتصادي المتاح لكل الدول،" فدول آسيا التي كررت تجارب ألمانيا واليابان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أثبت أن الحرية الاقتصادية (الليبرالية) تسمح لمن تأخروا باللحاق بركب المتطورين الأوائل، وأن هذا الهدف يمكن تحقيقه خلال جيل أو اثنين، ورغم أن هذه العملية لم تتم بدون كلفة، فقد كانت أشكال الحرمان والمصاعب التي تعانيها الطبقات العاملة في دول مثل اليابان، كوريا، تايوان، هونج كونج، تبدو لا شيء بالمقارنة بالرعب الاجتماعي الذي يخيم على سكان الاتحاد السوفيتي والصين ودول أوروبا الشرقية، وإن تحويل اقتصادياتها إلى نظم السوق تدل على إشارات من شأنها أن تمنع أي دولة من اختيار الحل الاشتراكي طريقا إلى تطورها. وهكذا يرى" فوكوياما " أن الرأسمالية بينت أنها أقدر من الاشتراكية، فالاشتراكية نجحت في وضع نظام اقتصادي رائع سمح بالانتقال من المرحلة الفلاحية إلى مرحلة صناعية متحضرة، لكن لم تستطع مواجهة متطلبات المرحلة ما بعد الصناعية ( تطور كبير جدا وأموال طائلة ) فلا يمكن إذن مسايرة هذا التطور

بنظام اشتراكي، خلافا للرأسمالية فهي الوحيدة التي أثبتت تكيفها مع هذه المرحلة من التطور والتصنيع نظرا لمميزاتها (السوق الحرة والاستثمارات المنافسة) " (17).

**3- الأسس الواقعية والتاريخية لأطروحة نهاية التاريخ عند فوكوياما:**

وتتلخص هذه الأسس فيما يلي:

**1.3- زيادة الدول التي تأخذ بالنموذج الرأسمالي:**

يدلل "فوكوباما "على تحول الأنظمة الشمولية في نهاية الأمر إلى نظام الليبرالية الديمقراطية التي هي نهاية التاريخ في نظره، بكون نسبة سكان العالم الذين يعيشون في ظل الديمقراطية الليبرالية ستزداد زيادة حاسمة مع الأيَّام، وأول تحول من الأنظمة الشمولية إلى النظام الديمقراطي الحر كان مع سقوط عدد من الحكومات اليمينية المستبدة في جنوب أوروبا، ففي عام 1974 سقطت حكومة " كايتانو" في البرتغال على إثر انقلاب عسكري، وبعد فترة من عدم الاستقرار انتخب عالم الاجتماع "ماريوسواريز" رئيسا للوزراء في أفريل عام 1976، ومنذ ذلك الحين يعيش البرتغال في ظل الحكم الديمقراطي (18). "كما أن كولونيات اليونان الذين حكموا حكما عسكريا منذ عام 1967 ، قد أزيحوا عن السلطة في 1974 مفسحين المجال أمام حكومة " كراما ناليس " التي أتت للحكم عن طريق الانتخاب الشعبي ، كما نجد أيضا إسبانيا، بوفاة الجنرال " فرانكو " عام 1975 مهدت الطريق للتحول السلمي إلى الديمقراطية بعد سنتين من هذا التاريخ، إضافة إلى هذا نجد أن الجيش التركي قد استولى على السلطة في سبتمبر 1980 نتيجة الاتجاه الإرهابي الذي ساد المجتمع، لكنه أعاد الحكم الشعبي إلى البلاد في 1983، ومنذ ذلك الوقت تتمتع كل هذه الدول بانتخابات حرة وتعددية الأحزاب، وبهذا يرى "فوكوياما " أن هذا التحول الذي شهدته منطقة جنوب أوروبا في أقل من عشرة سنوات جديرة بالاهتمام لأنها استطاعت أن تقوم بنقلة ناجحة إلى نظام ديمقراطي ثابت و مؤثر لدرجة انه أصبح من الصعب عليها أن تتخيل كيف كانت تحيا فيما سبق" (19). أما فيما يخص أمريكا اللاتينية ،" فقد ظهرت مجموعة من النقلات والتغيرات من الأنظمة الاستبدادية إلى الديمقراطية بدأت عام 1980 مع عودة الحكومة الديمقراطية المنتظمة في " بيرو" بعد اثني عشر عاما من الحكم العسكري، وفي أر جنتين عجلت حرب " فوكلا يد" في عام 1982 " بقيام حكومة "الفوسنين " الرئيس المنتخب ديمقراطيا، وفي نهاية الثمانينات سقطت دكتاتورية " شروسنير" في باراجواي و" بيونشي " في " الشيلى " مفسحة الطريق أمام حكومات منتخبة بواسطة الشعب، ومع بداية 1990 سقطت حكومة "ساندستا" في "نيكارجوا " أمام اتحاد " فوليت شامورو " في انتخابات حرة" (20). أما بالنسبة إلى شرق آسيا،" فقد تحطمت دكتاتورية " ماركوس " في عام 1986 في الفليبين، وحلت محلَّه "كورازون أكينو" التي تولت السلطة بمساندة شعبية، وفي جنوب إفريقيا في عام 1990 أعلنت الحكومة الأفريقية برئاسة "دذيكليرك" إطلاق سراح " نيلسون منديلا " والاعتراف بالكونجرس الأفريقي الأهلي، وضرب جنوب إفريقيا الشيوعي، ثم بدأت فترة من المباحثات كفترة انتقالية إلى الحكم المشترك بين البيض والسود، ومن ثم الانتقال إلى حكم الأغلبية النهائي" (21). ويقر فوكوياما بأنه" يكاد يكون هناك تطابق في عملية التحول

الديمقراطي في جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا، وفيما عدا " نيكارجوا " لم يوجد مثال آخر لإجبار النظام الحاكم القديم على التخلي عن السلطة عن طريق الثورة، فما سمح بتغيير أسلوب الحكم كان الاختيار الإرادي" (22). وهكذا يستتبع "فوكوياما" سقوط الأنظمة الشمولية لتحل محلها الديمقراطية الليبرالية كآخر وأحسن نظام يمكن أن تحققه البشرية لخلوه من التناقضات والصراعات والمفارقات والتغيرات ليؤكد على صدق نظريته القائلة بسقوط النظام الشيوعي ليحل محله النظام الديمقراطي .

**2.2- تراجع المد الاشتراكي في مختلف دول العالم الاشتراكية :**

كما يدلل "فوكوياما" على تراجع المد الاشتراكي في مختلف دول العالم الاشتراكية حيث أنه في عام 1989 كان العيد المئوي الثاني للثورة الفرنسية، والتصديق على دستور الولايات المتحدة الأمريكية، كما شهد السقوط النهائي للشيوعية ومنذ أوائل الثمانينيات كان التغير الذي شهده العالم الشيوعي سريعا جدا ومتزايدا، لقد بدأت الزعامة الشيوعية الصينية في أوائل الثمانينيات بالسماح للمزارعين الذين يشكلون 80% من سكان الصين أن يزرعوا ويبيعوا محصولا تهم بعد أن كانت الزراعة تجميعية، كما بدأت علاقات السوق الرأسمالية في العودة إلى الظهور ليس فقط في الريف بل في المناطق الحضرية الصناعية، أيضا، كما بدأت المطابع السوفيتية في نشر المقالات التي تنتقد جرائم " ستالين " في عام 1986، وهو موضوع لم يتناوله أحد من قبل منذ نفي "خروتشوف" في أوائل الستينيات، وبعد ذلك أخذت حرية الطباعة في الاتساع، وبحلول عام 1989 كان من الممكن مهاجمة "خورباتشوف " وباقي الزعماء السوفيت في الصحافة بحرية تامة، وفي عام (1990-1991 ) اندلعت مظاهرات واسعة النطاق شملت شتى أنحاء الاتحاد السوفيتي مطالبة باستقالة "خورباتشوف " وأكثر من ذلك، فقد نظمت في روسيا انتخابات لاختيار نواب الشعب في مارس 1989، وفي العالم التالي نظمت انتخابات أخرى في جميع الجمهوريات الروسية الخمسة عشر على مستوى محلي، وحاول الحزب الشيوعي أن يدير هذه الانتخابات لمصلحته، لكنه لم يستطع منع نواب غير شيوعيين من التحكم في عدد من البرلمانات المحليَّة (23). "كما شهدت "بكين" في 1989 مظاهرات لعشرات الآلاف من الطلبة المنادين بوضع حد للفساد السياسي، وإقامة نظام ديمقراطي في الصين، لكن الجيش الصيني أحبط هذه المحاولة بوحشية وعنف بالغين، لكن تمكنت هذه الانتفاضة من وضع شرعية الحزب الشيوعي الصيني محل تساؤل، كما انسحب الجيش الأحمر من " أفغانستان " في فبراير 1989 ، وكان هذا مجرد بداية لسلسلة من الانسحابات، وفي المجر أعلن أعضاء حزب العمل الشيوعي في أوائل 1989 خطة لإقامة انتخابات حرة تعدديَّة، وفي أفريل 1989 أدى اتفاق المائدة المستديرة إلى معاهدة باشتراك حزب العمال البولندي في السلطة، ولكن نتيجة هذه الانتخابات التي فشلت الشيوعية البولندية في إدارتها لمصلحتها أن تولت السلطة حكومة شعبية في 1990، وقد بدأت عشرات ثم مئات الآلاف من الألمانيين الشرقيين في الهرب إلى ألمانيا الغربية 1989 مسببين أزمة أدت

بسرعة لا تصدق إلى تحطيم سور " برلين " وسقوط ألمانيا الشرقية، وتبع سقوط ألمانيا الشرقية سقوط الحكومات الشيوعية في " تشيكوسلوفاكيا" و" بلغاريا" و"رومانيا" وفي أوائل 1991 خاضت عدة أحزاب انتخابات حرة في كل الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية، بما فيها " ألبانيا" وجمهورية " يوغوسلافيا الوسطى "، وكانت النتيجة هزيمة الشيوعيين في كل مكان ماعدا "رومانيا" ،"بلغاريا " ، "الصرب "، و"ألبانيا"، وفي فترة لاحقة ثم إجبار الحكومة الشيوعية المنتظمة في "بلغاريا" على التخلي عن السلطة، واختلفت القاعدة السياسية لحلف "وارسوا" و بدأت القوات السوفيتية في الانسحاب من أوروبا الشرقية" (24). وفي عام "1991 ألغيت المادة السادسة من الدستور السوفيتي التي تعطي الحزب الشيوعي سلطة مطلقة ودور قيادي، وعلى إثر إلغاء هذه المادة من الدستور تأسس في الاتحاد السوفيتي عدد من الأحزاب السوفيتية، والأكثر دهشة كان انتخاب "بوليس يلسن" لجمهورية "روسيا" في 1991 ، رغم أنه كان قد استقال والعديد من مسانديه في الحزب الشيوعي، وهي نفس المجموعة التي بدأت في الدعوة إلى إعادة الملكية الخاصة واقتصاد السوق، وخلال عام 1990 أعلنت البرلمانات المنتخبة في كل جمهورية بما فيها جمهوريتي " روسيا " و" أوكرانيا " سيادتها على جمهورياتها، وذهبت برلمانات جمهوريات " البلطيق " إلى أبعد من ذلك عندما أعلنت استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في مارس 1990 ، لكن هذا لم يؤد كما توقع البعض إلى سقوط فوري للاتحاد السوفيتي، لكن أدى إلى صراع حول السلطة داخل روسيا سواء للمحافظة على الاتحاد القديم أو القضاء عليه ،و قد شهدت "روسيا" أول انتخابات حرة شعبية في 1991 وانتخب " يلسن " رئيسا لروسيا الاتحادية، وعلى إثر ذلك تسربت السلطة بشكل واضح من موسكو إلى المناطق المتطرفة" (25). و في أكتوبر 1991 ، "أحبطت أول محاولة لقلب النظام الجديد في روسيا قامت بها مجموعة من المتعصبين الشيوعيين، وقد فشلت المحاولة نتيجة لعدم اتحاد المتآمرين و ترددهم في اتخاذ القرار، وساعد على فشل هذه المحاولة المساندة الفعالة التي قام بها ،" بوليس يلسن " للمؤسسات الديمقراطية في روسيا، و يرى فوكوياما أن كل هذه الأحداث و التطورات قد قضت على السلطة الشيوعية الشمولية، ومن ثم تعتبر ضربة قاضية للنظام بأكمله، وبالتالي فقد أسدل الستار الأخير عندما تحلل الاتحاد السوفيتي نفسه، ثم إلغاء الحزب الشيوعي في روسيا عقب فشل انقلاب أكتوبر 1991، كذلك فشلت الشمولية في جمهورية الصين الشعبية ودول أوروبا الغربية، فسيطرة الحكومة المركزية على الاقتصاد الصيني حتى في ذروة الفترة الستالينية لم تكن أبدا سيطرة مكتملة مثلما هو الحال في الاتحاد السوفيتي وعندما وضع " دنج كيساوينج" الدولة على طريق الإصلاح الاقتصادي في 1978، كانت لا تزال لدى الكثير من الصينيين ذكرى الأسواق وإقامة المشروعات من الخمسينيات، ومن ثمة فلا غرابة في أنهم كانوا قادرين على الاستفادة من النمو الاقتصادي في العشر سنوات التالية حيث استفاد " دنج وينج " من الملكية الخاصة بصورة فعالة خاصة في الريف، وفتح البلاد لاقتصاد رأس المال العالمي، ولهذا تعد بداية الإصلاح الاقتصادي اعترافا صريحا من قبل القيادة الشيوعية بفشل التخطيط المركزي الاشتراكي" (26). إن الانهيار الذي أصاب الأنظمة

الشمولية في أوروبا الشرقية، حيث كانت المؤسسات السوفيتية تفرض قسرا على شعوب المنطقة، قد حدث بشكل أسرع مما حدث في الاتحاد السوفيتي أو الصين، ولا غرابة في ذلك فعلى سبيل المثال" في "بولندا" لم تكن الزراعة مشتركة مثلما كان الحال في " أوكرانيا " المجاورة لها ، كما كانت الكنيسة أكثر استقلالا وبالإضافة إلى ذلك، فإن القوميات المحليَّة ظلت متشبثة إلى حد ما بمجتمعها فيما قبل الشيوعية، مما سمح بإعادة الوضع إلى ما كان عليه بعد اضطرابات أواخر 1989، كما نجد مع نهاية الثمانينيات أن الاشتراكية الأفريقية وتقاليد الدول القوية ذات الحزب الواحد قد صارت غير موضع ثقة على الإطلاق لأن أفريقيا عانت من التخلف الاقتصادي والحروب الأهلية و الأخطر من ذلك هو أن بعض الدول الأفريقية قد سارت على النهج الماركسي مثل: " أثيوبيا"،"أنجولا"،" موزمبيق" إلا أن تطور الأنظمة الديمقراطية في بعض الدول الأخرى مثل: جامبيا، السنغال .. أجبر الحكام المستبدين على البدء في إجراء انتخابات شبه حرة في المجموعة الثانية من الدول الأفريقية " (27).

ومما سبق نستنتج أن "فوكوياما" قد استعرض مجموعة من أحداث التاريخ ليقدم الدليل الواقعي على تحول الأنظمة الشمولية في نهاية الأمر إلى نظام الليبرالية الديمقراطية، اعتمادا على أن ثمة اتجاها سياسيا يفرض على المجتمعات البشرية نمطا واحدا في تطورها، وهذا بمثابة تاريخ عالمي للبشرية متجه صوب الديمقراطية الليبرالية التي تمثل في نظره نهاية التاريخ .

**3.3- فشل مختلف النماذج الفكرية في صراعها مع النموذج الرأسمالي:**

يرى "فوكوياما " أن أشكال الحكم السابقة أصابتها عيوب ومثالب خطيرة، أدت في النهاية إلى سقوطها، ومن وجهة نظره فإن الديمقراطية الليبرالية تخلو تماما من هذه التناقضات الأساسية الداخلية، وليس هناك أفضل منها بحكم أنها بنية ونسق يحقق النجاح، برغم العقبات التي يمكن أن تقف في طريقها، وهي كفيلة بتنشئة وتربية المواطن النموذجي الذي سينعم بالرخاء وكافة الحقوق المدنية مثل:العمل، والمساواة والإبداع، والابتكار ..الخ .وهذا المواطن هو الإنسان الأخير (28).

لقد قامت النازية على حق الشعوب السامية ( الألمان ) في حكم بقية شعوب العالم ولكي يتحقق الإدعاء النازي بسمو الجنس الألماني، كان عليها أن تدخل في صراع مع الثقافات الأخرى من خلال الحرب، والتي كان قيامها أمرا حتميًّا، لكن لم يكتب للنازية البقاء لمدة طويلة، وذلك بسبب الهزيمة التي لحقت بها في الحرب، وكنتيجة طبيعية لهزيمة النازية في أول صراع لها مع ثقافات أخرى، تضاءلت جاذبيتها في أعين الناس، فقد أقام " هتلر " ادعاءه بشرعية سلطته على الوعد بالسيطرة على العالم، لكن بدلا من ذلك انتشر الخراب في ألمانيا بل تم احتلالها من قبل شعوب أقل سموًا، و نتيجة لهذا لم تتح للنازية الفرصة كي تصبح منافسا جادا للديمقراطية الحرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لأنها تنطوي على تناقض داخلي تمثل في تركيزها الحاد على الحرب والجانب العسكري، مما أدى إلى وقوعها في صراع لا مفر منه مع النظام الدولي (29).

كما يرى "فوكوياما" أن الشيوعية أيضا قد فشلت في صراعها مع الديمقراطية

بانهيار دكتاتورية الحزب الواحد في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي ونظامه الشمولي، لأنها حاولت إخضاع المجتمع المدني بالكامل لسلطتها، لكن ظهور الإرهاب أفقد الدولة السيطرة على جوانب عديدة من مجتمعها المدني(30). كما أن إلغاء الحزب الشيوعي في روسيا عقب فشل انقلاب أكتوبر 1991 أسدل الستار الأخير على تحلل الاتحاد السوفيتي،" ويمكن لنا أن نقول الآن إنه ليست هناك أيديولوجيا ما يمكن أن تحل محل التصدي الديمقراطي التقدمي، ويصدق هذا على أغلب أجزاء العالم الحديث، فالملكية بأشكالها المتعددة، قد اضمحلت على نطاق واسع مع بداية هذا القرن، والنازية والشيوعية المنافسان الرئيسيان للديمقراطية لم يصدقا في طرحهما " (31).
ونظرا لفشل مختلف النماذج الفكرية في صراعها مع النموذج الديمقراطي، يفترض "فوكوياما"" أن الديمقراطية الليبرالية يمكن أن تكون النقطة النهائية لتطور الإيديولوجيا البشرية نحو الشكل النهائي لحكم البشرية، وبالتالي فهي بشكلها هذا تعتبر نهاية التاريخ، ومن وجهة نظره،" فإن أشكال الحكم السابقة عانت من نقائص وعيوب خطيرة، ومن جمود وتناقض، الأمر الذي أدى إلى سقوطها، وفي الوقت نفسها فالديمقراطية الليبرالية خالية من تلك التناقضات الجذرية الداخلية، وهذا لا يعني أنه في هذه الدول لا يوجد مكان لغياب العدالة، ولكن هذه المشاكل قد نتجت بسبب عدم التجسيد الكامل لمبادئ الحرية والمساواة في الواقع، والتي أقيمت على أسسها الديمقراطية المعاصرة، وليست ناجمة عن نقائص في المبادئ نفسها" (32). أي أن النقص في التطبيق لا في النظرية، ويختم " فوكوياما " نبوءته" بتشبيه الجنس البشري بقطار من العربات المتجهة إلى المدينة عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات حددت طريقها بدقة ووصلت بسرعة، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الأوباش، فضل الطريق وبحث عن طريق آخر، وفي النهاية يجدون أنفسهم مجبرين على سلك نفس الطريق للوصول إلى غايتهم، وهي الديمقراطية الليبرالية، ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة ، نهاية التاريخ" (33).

وأخيرا فقد أشار " فوكوياما " في الفصل الخامس والأخير لكتابه " الإنسان الأخير" إلى التناقض الذي يكمن في النظرية الديمقراطية الليبرالية التي حاول أن يخفيها خلف قناع من الاتساق النظري، حيث يتساءل في نهاية كتابه في حيرة عن مدى نجاح الديمقراطية الليبرالية واستمرارها وصلاحيتها قائلا :" على فرض أن الديمقراطية الليبرالية أصبحت في نهاية المطاف آمنة من خطر أعدائها في الخارج ، فهل بوسعنا أن نفترض إمكانية استمرار الديمقراطية الليبرالية ؟ أم ستجد نفسها فريسة تناقضات داخلية هي من الخطورة بحيث يمكن في النهاية أن تزعزع دعائمها كنظام سياسي" (34).
ومن خلال ما سبق نستنتج أن " فوكوياما " قد وقع في التناقض عندما شكك في قدرة الديمقراطية الليبرالية على الاستمرار بعدما كان في السابق يؤكد على أنه لن يكون هنالك مجال للتقدم إلا في ظل هذا النظام الذي يمثل في آخر الأمر نهاية التاريخ، وهذا ما يدل على تراجع نظريته والتشكيك في مصداقيتها .

**4- أطروحة نهاية التاريخ في ميزان النقد:**

لقد وجهت انتقادات عديدة إلى أطروحة فوكوياما هذه، بعد أن شغلت المثقفين في العالم الغربي والعالم العربي ردحا من الزمن، وكان من أهم الانتقادات أن التاريخ لم ينته بدليل استمرارية الحروب والصراعات في مناطق شتى من العالم، فالعصبيات القومية والدينية لا تزال تحرك التاريخ وتشغله هنا وهناك، يضاف إلى ذلك أن البشر لن يكتفوا بالبحبوحة الاقتصادية و إنما يتطلعون إلى ما وراء ذلك إلى ما هو أبعد وأسمى من ذلك. هل غير "فوكوياما" أطروحته بعد كل هذه الانتقادات التي انصبت عليه من كل حدب وصوب ؟ أبدا ،" فهو لم يقل بأن التاريخ انتهى في العالم كله، وإنما فقط في بلدان الغرب الأوربي – الأمريكي المتقدمة . أما في بقية أنحاء العالم فقد بقي أمام الناس شوط طويل ينبغي أن يقطعوه قبل التوصل إلى الديمقراطية والتعددية السياسية و الحرية الفكرية ورغد العيش، كما حصل في الغرب" (35).

وإذا كان فوكوياما يستند بشكل أساسي على أطروحة "هيجل" وأيضا "ماركس " حتى أن القارئ يجد نفسه مع "فوكوياما" وكأنه مع "كارل ماركس" جديد، واحد زعم في السابق نهاية التاريخ مع الشيوعية، والآخر زعم نهاية التاريخ مع الليبرالية الغربية وفق النموذج الأمريكي، فإن ما ينطبق على "هيغل" و"ماركس" ينطبق من باب آخر على "فوكوياما" ، فهو يدعي أن الديمقراطية الليبرالية هذه المرة هي نهاية التاريخ، الذي أصبح مستباحًا لكل من يريد بتره وإيقافه عند حده، ويتجاهل أن الليبرالية التي حلم بها "هيجل " لم تتحقق أبدا بالصورة التي رسمها لها ،كما أن الشيوعية التي نادى بها "ماركس " سقطت سقوطا عظيما ومدويا بسقوط الاتحاد السوفيتي، وانقضاء عهد المعسكر الشرقي وبالتالي فقد تلقى الديمقراطية الليبرالية التي يرفع "فوكوياما" شعاراتها نفس المصير(36).

لقد انتقل فوكوياما بين مختلف النظم الشمولية متتبعا سقوطها الواحد بعد الآخر: في البرتغال، واليونان، وتركيا، والاتحاد السوفيتي، وألمانيا الشرقية، وبولندا، وغيرها من دول المعسكر الشرقي السابق، كي يدلل على تحول هذه الأنظمة في نهاية الأمر، إلى نظام الديمقراطية الليبرالية التي هي نهاية التاريخ في نظره، مستعرضا أحداث التاريخ ليؤكد في النهاية حتمية الحل الديمقراطي الليبرالي، كما كان أنصار الاشتراكية يؤكدون حتمية الحل الاشتراكي، بل نجده يتنبأ بأن نسبة سكان العالم الذين يعيشون في ظل الديمقراطية الليبرالية ستزداد زيادة حاسمة مع الأيام، ولا يقدم المبرر أو الدليل على ذلك سوى نصرته لما ينادى به لدرجة أنه يعلنها ثورة ليبرالية اعتمادا على أن ثمة اتجاها سياسيا يفرض على المجتمعات البشرية نمطا واحدا في تطورها، هو بإيجاز بمثابة تاريخ عالمي للبشرية متجه صوب الديمقراطية الليبرالية. " لقد قرر فوكوياما هذا وخلفه كل أجهزة الدعاية الأمريكية متجاهلا أو جاهلا بتعدد الثقافات والحضارات ،و بالتالي تعدد المجتمعات ونظم الحكم والإيديولوجيات، إذ من المستحيل أن تعيش الشعوب في ظل نظرة إيديولوجية أحادية، وفي قالب نمطي واحد، ولو افترضنا جدلا حدوث هذا، فإنه لا يعني سوى الانعزال والانغلاق والتحجر والموت لهذه الشعوب، لأنها لن تتواصل فيما بينها، فالتواصل هو نتيجة طبيعية للاختلاف والتضاد والتعدد والتنوع، وتبادل المصالح المشتركة، لكن فوكوياما يقرر

ببساطة مخلة للغاية أن المتشائمين وحدهم هم الذين يشكون في قيام هذه الوحدة العالمية فقد أصبح في عصر العولمة من الإمكانيات الحضارية والسياسية ما يساعد على كتابة تاريخ عالمي للبشرية، بدلا من التاريخ الذي يجزأ العالم إلى أجزاء متناثرة، ويعالج كل منها على حدة" (37). إن تطور البشرية في نهاية القرن العشرين، يؤكد على أن شعوب العالم تقدر أصالتها وقيمها الروحية وثقافتها، العالم يستطيع بل ويجب أن يكون واحد وغير مجزأ، ولكن لا يجب أبدا ولن يكون نموذجا واحدا ونمطا واحد أيضا، فسوف يكف عن كونه عالما لأناس مختلفين ومتنوعين حيث كل شعب وكل إنسان فريد وغير متكرر.

لقد تحدث فوكوياما عن نماذج التحول إلى الديمقراطية في أكثر من دولة في العالم، وفي أمريكا اللاتينية، وتناسى أن أمريكا التي يتغنى بها كانت تدعم بكل قوة الجنرالات والديكتاتوريين في أكثر من منطقة في العالم. إن أمريكا هي دولة ديمقراطية في الداخل ، لكنها في سياستها الخارجية، تبدو نازية جديدة متنكرة (38).

وهكذا يتضح أن نظرية "نهاية التاريخ" ما هي إلا أطروحة من بين الأطروحات التي حاولت تكوين رؤية مستقبلية للتحولات السياسية العالمية، وتشخيصها لمستقبليات ما بعد الحرب الباردة، وهي تعبر عن أحد اتجاهات التفكير الاستراتيجي الأمريكي في هذه المرحلة، والذي يقوم على افتراض أن انتهاء الحرب الباردة يعني انتهاء الصراع الكبير في السياسة الكونية، وظهور عالم واحد منسجم نسبيا ،فمع سقوط جدار برلين اختفى العدو، ولم يعد للشيوعية وجود مادي يتحدى الليبرالية الأمريكية،فكانت فرضية النهاية الأولى هي فرضية " نهاية الشيوعية "، وهي النهاية التي استتبعت بقية النهايات ،فكانت "نهاية التاريخ" و"نهاية الإيديولوجيا" و "نهاية الحدود " ومعها " نهاية الدولة الوطنية ،"عداك " نهاية القوميات " وغيرها من النهايات وصولا إلى "نهاية العالم " التي أطلقها " جون مورغان " وتأتي حوادث الثلاثاء 2001/09/11 التي قضت على كل فرضيات النهاية، فأحدثت بذلك فوضى فكرية أمريكية لم يتطرق إليها الكثيرون بسبب الانشغال بحوادث الثلاثاء، وبالأحداث المتفرعة عنها" (39). ومن أهم معادلات ذلك الثلاثاء أن انتحاريين قاموا بتلك العمليات، ومهما تكون هوية هؤلاء فإن إيديولوجيا ما تكمن وراء تضحيتهم بحياتهم، فالإيديولوجيا وحدها القادرة على إقناع شخص ما للتضحية بحياته، وهذا يعني سقوط فرضية نهاية الإيديولوجيا .

لقد أقر فوكوياما عجز نظريته في تفسير الواقع الدولي بعد أحداث الـ 2001/09/11 في واشنطن ونيويورك، لقد شعر بضعف نظريته عندما أخذ يكيفها على نحو محدد، بانتقاله من البناء الانفعالي الحماسي في مقاله "نهاية التاريخ" إلى تقويمات أكثر تحفظا في أعماله التالية.إن ضعف فرضية نهاية التاريخ أصبح ملاحظا حتى من قبل المناصرين لمبدأ الديمقراطية الليبرالية، سواء كانوا من العلماء أو السياسيين الذين يدركون أن الدفاع المباشر والمستقيم عن هذه المبادئ قد أصبح خاسرا، وأن الوضع

المستجد في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة لا يعطي سببا للتقويمات والتنبؤات الأحادية. إن نغمة التشاؤم التي تسري في طيات كتابه " الانهيار العظيم " تجعله لا يبدو وهو نفسه، وكأنه يطبق على نفسه مبدأ الرجوع إلى الحق فضيلة (40).

إن استعراض واقع الحلال في الولايات المتحدة الأمريكية يظهر ما في مجتمعهم من عوائق وعقبات وإشكاليات تهدد وتنذر بخطر هذا المجتمع نفسه، فالواقع الأمريكي يبين مدى الانقسام الحاد داخل مجتمعهم جراء التمييز العنصري بين البيض و السود، والعدوانية ضد قيم الإسلام، ناهيك عن العدوانية ضد كل الشعوب، كذلك تفاقم مشكلة المخدرات، وكثرة الجرائم، بالإضافة إلى مشاكل عديدة، ولهذا فالولايات الأمريكية يصعب عليها تعميم نموذجها اللبرالي وثقافتها باسم الاقتصاد لأن هذا الأخير بالنتيجة لا يستطيع أن يحلق بعيدا عن الهوية الثقافية (41).

وتؤكد قراءة الأحداث في العشر سنوات المنصرمة، أن وجود قطب آخر في السياسة الدولية كان عاملا إيجابيا في الحيلولة دون انتشار ظاهرتي الإرهاب المتبادل، فقد كانت الحركات الثورية وضمنها حركات التحرر الوطني، والحركات اليمينية المتطرفة تستند في دعمها على أحد المعسكرين وكانت الحركات تشكل الوجه الآخر للصراع بينهما، فهي في الغالب متجانسة في أفكارها وسياستها مع أحدهما، ولا تستطيع العيش وممارسة دورها دون المساعدات المالية، والدعم العسكري والسياسي الذي تلقاه منهما، وكان ذلك عامل ترصين واحتواء لتلك المجموعات، ولذلك لم تشهد تلك المرحلة انفلاتا في السياسة الدولية كالذي يسود الآن، فقد كان يكفي أن يلتقي زعماء القوتين العظيمتين أو من يقوم بتمثيلهما ليحسما من خلال المفاوضات والمقايضات ما يدور على المسرح العالمي من صراعات، فتتم المساومات بينهما مستخدمين تلك الحركات لتحسين أوراقهما التفاوضية، وكان اتفاقهما في المحصلة النهائية تخفيضا من بؤر التوتر. إن غياب الأب الشرعي للحركات اليسارية والوطنية والأصولية، وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة على العالم، قد خلق حقائق جديدة ساهمت مباشرة في بروز الإرهاب المتبادل واتساع دائرته، فقد أصبح على معظم الحركات التي تشعر بالغبن والجور أن تعتمّد على ذاتها ولا تتوقع مساعدة من أحد، مما غيَّب إمكانية ترصينها وعقلنتها (42).

وهكذا يبدو بوضوح أن التاريخ لازال في بدايته، وأن تعددية الأقطاب السياسية الدولية ورفض هيمنة القطب الواحد ربما تكون الملجأ الأخير للقضاء على الإرهاب، بكل مستوياته، سواء ذلك الذي يشنه سيد البيت الأبيض والكيان الصهيوني، أو أولئك المضطهدون الباحثون لهم عن الملجأ في الجبال والوهاد (43). وحتى يتحقق ذلك يبقى الطريق طويلا ووعرا ويبقى التاريخ بعيدا جدا عن نهايته التي بشر بها فوكوياما، وقال بها الفلاسفة من قبل .

**المراجع**


1- بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، دارالشروق،الأردن، ط1، 2000، ص413- 414.
2- د.محمد علي الفرا، هل نهاية التاريخ هي نهاية الجغرافيا ؟ http// WWW.alshaab ..
3- بكري خليل، مرجع سبق ذكره، ص 409- 410.
4- المرجع السابق نفسه، ص 413.
5- سعود المولى، تجاوز الحداثة، http// WWW.alumultak .net .
6- سهيل عروسي، مأزق الليبرالية، نهاية التاريخ – نموذجا - //http . WWW.mustakbaliat.com
7- المرجع السابق نفسه.
8- المرجع السابق نفسه.
9- المرجع السابق نفسه.
10- المرجع السابق نفسه.
11- صالح زياني، " التحيز والغموض في أطروحات فوكوياما " جريدة كتابات، العدد 29 /10 17 فيفري 994 ، ص 20 .
12- المرجع السابق نفسه، ص 20.
13- المرجع السابق نفسه، ص 20.
14- كميليا صبحي، الإرهاب الفكري وبزوغ العولمة، دار الثقافة، القاهرة، د س، ص 147.
15- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، ترجمة حسين الشيخ، دار العلوم العربية ، بيروت، ط1، 1993، ص 111 .
16- المرجع السابق نفسه، ص 114 .
17- المرجع السابق نفسه، ص 114 .
18- المرجع السابق نفسه، ص 115 .
19- المرجع السابق نفسها ص ص 126-125.
20- د. نبيل راغب، أقنعة العولمة السبعة، دار غريب، مصر،2001 ، ص 374 .
21- فرانسيس فوكوياما، مرجع سبق ذكره، ص 30 .
22- المرجع السابق نفسه، ص 31 .
23- المرجع السابق نفسه، ص 31 .
24- المرجع السابق نفسه، ص ص 42-432.

25- المرجع السابق نفسه، ص 43.
26- المرجع السابق نفسه، ص 44 .
27- المرجع السابق نفسه، ص ص 50-51.
28- المرجع السابق نفسه، ص 52.
29- المرجع السابق نفسه، ص 52 .
30- نبيل راغب، مرجع سبق ذكره، ص 373 .
31- أسعد السحمراني، صراع الأمم بين العولمة والديمقراطية، دار النفائس، ط1 ، دم ، 2000، ص 26 .
32- فرانسيس فوكويام، مرجع سبق ذكره، ص ص 55-61.
33- فلاديمير يولوف، "نهاية التاريخ أم البحث عن طريق جديد"، مجلة الثقافة العالمية ، العدد 86 ، ص10 .
34- فراتسيس فوكوياما، مرجع سبق ذكره، ص ص 278- 279 .
35- نبيل راغب، مرجع سبق ذكره، ص 380.
36- هاشم صالح، المثقفون الأمريكيون ومصير العالم ،http// WWW.balagh.com .
37- نبيل راغب، مرجع سبق ذكره، ص 383 .
38- مصطفى حلمي، الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ط1، د س، ص 139.
39- إدريس هاني، حوار الحضارات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1 ، 2002 ، ص 122 .
40- محمد أحمد النابلسي ، نهاية التاريخ وعصر النهايات، //http . WWW.mustakbaliat.com
41- نبيل راغب، مرجع سبق ذكره، ص400.
42- أحمد محمود صبحي، صفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 355.
43- أحمد محمود صبحي، صفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 355.
- حول الإرهاب ونهاية التاريخ، http// WWW.arabrenecoal.com .